الادب العباسي

شهد العصر العباسي (١٣٢هـ - ٦٥٦هـ) ازدهارا رائعا في شتى مجالات الحياة الحضارية والفكرية والادبية ، فعلى صعيد الادب - وهو موضوع بحثنا - فقد اكبّ الشعراء والكتاب على اللغة العربية يتقنونها ويتمثلون ملكتها وسليقتها تمثلا دقيقا ، نافذين بنوقهم المتحضر الى اسلوب مصفى يجمع بين الجزالة والرصانة حيناً، وبين الرقة والعذوبة حيناً اخر.

وكان تأثرهم بالثقافات المترجمة عميقا ، وبما كانوا يستمعون اليه من محاورات المعتزلة وغيرهم ، فدفعهم هذا الى التطور بموضوعات الشعر الموروثة، نلمس فيه روح العصر ، وخصب الفكر ، ورهافة الشعور ، يضاف الى ذلك ما ابتكروه من موضوعات جديدة .

ابو تمام الطائي

هو حبيب بن اوس الطائي ، ولد بقرية (جاسم) قرب دمشق ، واختلف في سنة ولادته ، فمنهم من قال انه ولد سنة ١٧٢هـ ، وقيل سنة ١٨٢هـ ، وقيل سنة ١٩٢هـ ، ونسب اليه قوله : (ولدت سنة ١٩٠هـ)^(١)

وزعم اخرون ان اباه كان نصرانيا يدعى (تدوس) وانه حرّفه الى (اوس) ، ونصرانية ابيه لا تنفيه من العرب ولا من طيء فقد كانت النصرانية شائعة في قبيلة طيء.

وكما تضاربت الاراء في سنة ولادته ونسبه فقد تضاربت في نشأته ايضا، ويذكر اكثر المؤرخين انه نشأ في دمشق ، وتلقى علومه في حلقات المساجد، وكان ذكيا ، قوي الحافظة ، ويتمتع بسرعة بديهية قل نظيرها، فنهل من جداول الشعر والثقافة ، وسرعان ماتدفق ينبوع الشعر على لسانه ، فاتجه الى اليمانيين والطائيين في بلده وفي (حمص) يمدحهم ، وينال عندهم حضوة ، ثم توجه الى مصر ، فمدح واليها نوح بن عمرو السكسكي وقائد شرطته عياش بن لهيعة الحضرمي، ويعود الى دمشق سنة ٢١٤هـ فيجد المأتم منصوبة على بطل (طيء) المغوار محمد بن حميد الطوسي الذي قتل في الحرب ضد (بابك الخرمي) فبكاه بكاءً مرأً ورثاه بشعر مؤثر نابع من عاطفة مفجوعة . ثم اخذ يتردد على (الرقة) و (الموصل) ويمدح اجوادها، توجه بعدها الى بغداد سنة ٢١٨هـ وتعمقت علاقته مع (اسحاق بن ابراهيم المصعبي) القائم على شرطة بغداد فأشاد بانتصاراته ، ثم ارتحل الى (خراسان) للقاء واليها عبدالله بن طاهر ، فأستقبله الاخير استقبالا حافلا حضره جمع من الكتاب والشعراء ، ولما عاد من (خراسان) الى بغداد التقى بأحمد بن ابي دؤاد مستشار المعتصم وقاضي قضاة ، و بأحمد بن المعتصم ، وكذلك انعقدت صلة وثيقة بينه وبين محمد بن الزيات وزير المعتصم سنة ٢٢٥هـ فكان سبيلا الى تقربه من الخليفة.

تعتبر قصيدته البائية في فتح (عمورية) على يد المعتصم من عيون الشعر العربي حيث مدح المعتصم واعتبر معركة الفتح والتحرير من برائن البيزنطيين ام الملاحم ، فسجل ذلك الانتصار العظيم مبتهجا ابتهاجا لاحد له .

القصيدة

السيفُ اصدقُ إنباءً من الكتبِ   في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ (١)
بيض الصفائحِ لا سود الصحائفِ في   متونهنّ جلاء الشكِّ والريبِ (٢)

الشاعر هنا يفضل القوة على العقل ، والسيف على الكتب، ويبدو مستهزئاً بالمنجمين الذين حذروا المعتصم من الهزيمة في هذه المعركة ، وحذروه من المغامرة في فتح (عمورية) ، ولكن الخليفة اصر على قراره وتحقق النصر . ثم يتحدث الشاعر عن تلك الواقعة وماحقته للاسلام والمسلمين من عز ومجد، وهوت بالروم وديارهم الى الحضيض .

فتح الفتوحِ تعالى ان يحيط به   نظمٌ من الشعرِ او نثرٌ من الخطبِ
فتحٌ تفتحُ ابواب السماء له   وتبرزُ الارضُ في اثوابها القشبِ (٣)

ثم يسترسل الشاعر في وصف المدينة وقد ركعت صاغرة تحت قدمي المعتصم يلطخ الدم ذوائب وجباه فرسانها الذين تجرعوا مر الهزيمة ، وهرب امبراطورهم (تيوفيل) وتمزق جيشه ، والتهمت النيران المدينة ، وتحولت القلاع والقصور الى ركام اسود بسبب الحرائق التي اشتعلت فيها .

لقد تركت امير المؤمنين بها   للنار يوماً ذليل الصخر والخشبِ
غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى   يشلّه وسطها صبحٌ من اللهبِ
حتى كأنّ جلابيب الدجى رغبت   عن لونها ، او كأنّ الشمسَ لم تغبِ
ضوءٌ من النارِ والظلماءُ عاكفةٌ   وظلمةٌ من دخانٍ في ضحى شحبِ
فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد افلتت   والشمسُ واجبةٌ في ذا ولم تجبِ (٤)

يتضح في هذا المقطع ان الشاعر يستمد من قانون الاضداد في وصف الحريق يخالطه في تضاعيفه خيال ، بل حلم عجيب . فالليل البهيم كانه صبح منير ، وكان الشمس لم تغب ، كما ان الشاعر يصرح بعواطفه الدينية والقومية ، ويبثها في جنبات الملحمة ، واذا تركنا ذلك الى مدائحه الاخرى نجد الشاعر يلائم بين مدحه وممدوحه عبر استخدام البلاغة ودرر الالفاظ والمعاني .

(١) إنباء : اخبار ، الحد : حد السيف ، الحد الاخر : الفاصل بين شينيين

(٢) الصفائح : السيوف ، الصحائف : الكتب ، جلاء : وضوح

(٣) القشب : المزركشة بالالوان الزاهية

(٤) واجبة : افلة ، غاربة

خليفة الله ! جازى الله سعيك عن
جرثومة الدين والاسلام والحسب (١)
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تنال الا على جسرٍ من التعبِ
فبين ايامك اللاتي نصرت بها
وبين ايام بدرٍ اقربُ النسبِ

وعلى هذا النحو يملأ شعر ابي تمام نفس قارئه فتوة وقوة ، لا بما يصوره من بطولات العرب فحسب ، بل بما يصوره من بطولة نفسه و اقتحامه الصعاب، وما ظفر به من مجد فني حتى استحق ان توصف قصائده باللائى الفريدة لما حفلت به من غرابة وغموض ، واستخدام البديع ، حتى ليخيل للقارئ ان ابا تمام هو مبتكر البديع ، الى جانب توظيفه لعلوم زمانه من فلسفة ومنطق وطبيعة وفلك في ثنايا شعره . انه - بحق رائد التجديد في شعرنا العربي الخالد .

توفي سنة ٢٣١هـ وهو في اوج شبابه وعطائه ودفن في الموصل .

ابرز اثاره

- ١- ديوانه - طبع مرات عدة ، وجرى شرحه من جانب كبار علماء الادب كالصولي والامدي والتبريزي
  - ٢- ديوان الحماسة - وهو جمع لاشعار العرب في الجاهلية والاسلام . تولى شرحه كثير من العلماء
- ابرزهم العلامة التبريزي

---

(١) جرثومة الدين : اصل الدين وثوابته .